التداولية ومقولاتها النصية

قراءة في المفهوم والآليات

الطالبة: نوني أسماء

جامعة تيارت ـ الجزائر

البحث في مجال تحليل الخطاب، يحملنا على التعامل مع الكثير من المصطلحات والمفاهيم، كالنحو والدلالة، والتداولية[1]، التي استرجعت مؤخرا كبعد مميز للبحث في هذا المجال، إذ تشترك معه في الاهتمام بمنتج النص، ومتلقيه وسياق التلقي، والهيئات والظروف المقترنة بعملية التلقي[2].

وقد أشار فان ديك[3] إلى أن المستويين الشكلي والدلالي لا يكفيان لتحديد بنية العبارة.

الضرورة تدعو إلى استقدام مستوى ثالث، هو المستوى التداولي الذي يخدم نظريته التي صبا إليها، وهي نظرية التواصل الأدبي، فقد أرّخ فانديك للتحوّلات النظرية منذ "علم الدلالة التوليدي" ثم اقترح إنشاء "نظرية عامة" تشتمل على "نظرية للنصوص الأدبية" و"نظرية للتواصل الأدبي"بالتالي نقل الأدب من "نظرية للأبنية اللغوية" إلى "نظرية للاستعمال الأدبي"[4]، ذلك من خلال اهتمامه بالدلالة والتداول؛ فأنشأ مقاربة أكثر وضوحا وتنظيما للدراسة اللسانية للخطاب؛ [5] تعنى بالعلاقة بين النص وعناصر الموقف التواصلي المرتبطة به بشكل منظم، وهو ما يطلق عليه سياق النص، كما تعنى أيضا بالشروط والقواعد اللازمة للملائمة بين أفعال القول، وتقنيات المواقف الخاصة به، أي العلاقة بين النص والسياق، و بالشروط اللازمة كي تقبل الأقوال اللغوية، وتنجح، وتلائم الموقف التواصلي الذي يتكلم فيه المتكلم[6].

لعل هذا ما يميز علم لغة النص عن غيره بإقحام عناصر غير لغوية في تحليليه للنصوص، فهو علم يستدعي كل مستويات التحليل ويُعزى للنهج التداولي، داخل عملية البحث الكلية لتحليل النص "أهمية غالبة باعتبار أنه الجانب الأشمل لعلم لغة النص"[7]، بذا تكون علاقة

المنارة للاستشارات

www.manaraa.com

التداولية بعلم لغة النص تكاملية، بدرجها ضمن مستويات التحليل عنده، كمستوى مهم بمفهومه الواسع.

1 . ملامسة مفهوم التداولية، تحديدات أولية:

أ. مفهوم المنهج التداولي:

علينا بداية تحديد مصطلح التداولية؛ حيث سنلاحظ كثرة المفاهيم الدائرة حوله، انطلاقا من كونه منهجا للتفكير[8]، وكذلك لكونه يشكل منهجا لسانيا جديدا، يدرس اللغة بشكل مختلف. فهو مفهوم عائم، يصعب حصره، وهذه بعض المقاربات التي ساقها علماء الغرب للتداولية؛ نستهلها بتعريف الباحث اللساني والتداولي ليفنسون، في كتابه Paragmatics، وهو في الحقيقة يضم عدة تصورات لمفهوم التداولية [9] .

التصور الأول: التداولية هي دراسة للاستعمال اللغوي، الذي يقوم به أشخاص، لهم معارف خاصة، ووضعية اجتماعية معينة.

التصوّر الثاني: التداولية دراسة للمبادئ التي تؤهلنا لإدراك غرابة بعض الجمل، أو عدم مقبوليتها، أو لحنها.

التصور الثالث: دراسة اللغة في إطارها الوظيفي؛ أي محاولة فهم اللغة بالاعتماد على عناصر غير لغوية.

لتصور الرابع: التداولية دراسة للعلاقات بين اللغة والسياق، أو هي دراسة لكفاية مستعملي اللغة في ربطهم للغة بسياقاتها الخاصة.

التصور الخامس: التداولية، دراسة لظواهر بنية الخطاب اللغوي؛ من تضمينات واقتضاءات، أو ما يسمى بأفعال اللغة[10].

التصور السادس: التداولية دراسة كل مظاهر المعنى، ولا يمكن فصلها (عن التعابير التي لا تعلل بشروط الصدق)، نظرية الدلالة محدودة في العنصر القاضي بشروط الصدق، في حين تتناول التداولية التعابير التي لا تعلل بشروط الصدق. انثنت التعاريف السابقة على وصف الهالة

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المفهوماتية لهذا المصطلح المعقّد، ويمكن تلخيصها في أن التداولية هي دراسة علاقة النصوص مع منتجها ومستعملها.

قد عرّف بعض العلماء التداولية بمقارنتها مع ما توصل إليه دي سوسير؛ إذ يذهب رولاند ايليوار إلى أن فكر دي سوسير لم يستبعد الكلام فقط، بل استبعد أيضا الأفراد المتكلمين (المخاطِب المخاطَب)، وكذلك السياق الاجتماعي للغة، كما استبعد الإنجاز الفعلي للغة، كل هذه العوامل تشكّل من خلالها مفهوم التداولية ذلك الإطار المعرفي الذي يلقي الضوء على الكلام، وهي العوامل التي استند عليها إيليوار في مفهومه للتداولية[11]. نأخذ تعريفا آخر للتداولية وهو تعريف آن ماري دبير وفرانسوا ريكاناتي إذ يريان أن التداولية "دراسة استعمال اللغة في الخطاب، شاهدة في ذلك على مقدرتها الخطابية"[12]. إذاً هي ظاهرة خطابية، وتواصلية، واجتماعية.

أثناء البحث في مصطلح التداولية، يعترض الباحث إشكال حصر المصطلح تحت رؤية نظرية واضحة، إذ نجد "التداولية"[13]،و"التداولية الفلسفية"، و "تداولية اللغة"، "اللسانيات التداولية". يمكن تحديد الفرق بين المصطلحات كالآتي:

1. التداولية: هو معادل لمجال البحث، أي هو المنهج الكامل والباقي، عبارة عن قضايا تابعة له.
2. التداولية الفلسفية: هو مصطلح يشير إلى انحدار التداولية من الفلسفة تاريخيا.
3. اللسانيات التداولية: مصطلح يدل على مجموع النظريات التداولية المعدة ضمن إطار اللسانيات، يدمج بين عمل فلسفة اللغة واللسانيات.
4. تداولية اللغة: مجموع النماذج ذات القالب التداولي؛ التي تأخذ دراسة الأوجه المختلفة للغة كموضوع للدراسة، وبشكل خاص الأنظمة الثقافية باعتبارها أنظمة تواصلية متممة

يمكننا الاستنتاج مما قيل، أن التداولية دراسة لعلاقة العلامات اللغوية بمستعمليها[14]. المتمثلين في الملتقى، والمنتج، والموقف، وهدف النص، وأنواع التفاعل، وأشكال السياقات، وكيفية التواصل، كل حسب دوره في هذه العلاقة، ويتم جمع لهذه العناصر في الدراسة التداولية، كل هذه

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

العناصر تجمعها الدراسة التداولية بهدف الوصول إلى التحليل المتكامل للنصوص؛ الذي تسعى إليه النظريات اللسانية الحديثة .

2. مسيرة المقاربة التداولية:

هناك اختلاف شديد حول أنابيش المنهج التداولي، غير أنّ جلّ الدراسات تجمع على عالمين اثنين عند التعرض لهاديات هذا المنهج، وهما:

شارل ساندرس بيرس[15] (1839- 1914) وجون أوستين[16]، سنسلم أن الأسبقية لبيرس؛ بحكم تقدم تاريخ طرحه للأفكار التداولية، وأول ما ظهرت عنده التداولية سنة 1878،عندما نشر مقاله المشهور "كيف نجعل أفكارنا واضحة".

التداولية عند بيرس منهج للتفكير وليس نظرية فلسفية، أو هي عنده منهج لتحديد المعاني الخاصة بالألفاظ؛ أي فن توضيح الأفكار "بهذا ساوى بين معنى الأفكار، والوظائف التي تقوم بها"[17]، فتصور الشيء عنده تصوّر لآثاره العلمية، ووظيفة الشيء هي التي تحدد تصورنا حوله؛"فالتيار الكهربائي مثلا لا يعني مرور موجة غير مرئية في مادة ما، وإنما يعني مجموعة من الوقائع، مثل: إمكان شحن مولد كهربي، أو أن يُدقّ جرس، أو أن تدور آلة، وإذن فمعنى لفظ كهرباء هو ما تفعله"[18]. مع أن الكهرباء غير ظاهرة للعيان إلا أننا نعلم بوجودها، بسبب ما تخلّفه من وظائف، هذا ما رمى إليه بيرس، أنّ التصوّرات التي ليس لها آثار ليس لها معنى. وتظهر حقيقة اهتمام بيرس بالتداولية عندما تناول الدليل اللغوي في أبعاده الثلاثة:

البعد التركيبي: حيث تناول الدليل اللغوي في نفسه؛ فهو بهذا الاعتبار مجرد دال كامن غير معين وغير مختص.

البعد الوجودي: أو الدلالي المعنوي؛ هنا يربط الدليل بما يدل عليه.

البعد التداولي: ينظر إلى الدليل من خلال العلاقة التي تربطه بمؤوله، فيصير الدليل بذلك قانونا عاما في عالم التبليغ[19]، وبقي هذا المفهوم للبعد التداولي قارا إلى الآن، حيث لا تخرج الدراسات الحديثة في تعريفها عن الخطوط العريضة التي وضعها بيرس.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

نستطيع القول أن مفهوم التداولية عند بيرس، بدأ معه تصوّره للدليل، فالعالَم بالنسبة لبيرس، يتم إدراكه بواسطة التفاعل بين الذوات، يحصل هذا بفضل الأدلة، والناس يتعاملون بهذه الأدلة ليمثلوا واقعهم، وليصلوا إلى الأدلة، و"دلالة شيء ما إنما تتمثّل ببساطة في العادات التي تتولّد عنها، إن السمة المميزة للعادة إنما تكمن في الكيفية التي تحملنا على العمل، لا في الظروف المحتملة فحسب، بل كذلك في الظروف الممكنة الحصول، بل حتى في تلك التي يتعذّر تصوّرها"[20]، حول هذا الفكر يصف هابرماس موقف بيرس العلمي "باعتباره نوعا من إسقاط تجربة التطور العلمي، صوب الجماعة الموجهة للجنس البشري، وهي تتلخص ببساطة في حكمته (العلم بالنسبة إلينا شكل من أشكال الحياة)"[21]، التي لا يمكن إدراكها إلا بنظام من الأدلة.

مفهوم التداولية في هذه المرحلة من مراحل فكر بيرس _تصوّره للدليل_ تميّزت بكون المفهوم ذو طبيعة عقلية عامة،لهذا ستكون التداولية عند بيرس، نظرية لمعنى الأفكار، أو قاعدة منطقية تُستخدم لتحديد معاني المفاهيم. بعد اهتمامه بالدليل، وإفادته منه في تطوير المنهج التداولي، حاول بيرس رؤية المنهج من زاوية أخرى، عندما وصف التداولية أنها "قاعدة في المعنى ترتبط بالاستدلال الفرضي، لأن الفكرة الجديدة هي الفكرة الوحيدة التي تحتاج إلى إيضاح وتفسير"[22]. هنا ربط بين التداولية والفرض، وعلق عليها أهمية قصوى في الاستدلال. بعد ذلك جاءت آخر مرحلة لفكر بيرس، عندما قدم نظرية متكاملة، ودروسا في المعنى، وظهر اهتمامه بنظرية الإشارات، واعتبرت "البراغماتية في هذه المرحلة تطويراً لنظريته المبكرة في الإشارات"[23]، كانت هذه المرحلة مرحلة النضج والاكتمال؛ إذ توصل بيرس إلى الذروة في علمه وتفكيره.

جاء بعد بيرس من طور المنهج التداولي، وأسس له كاختصاص فلسفي في اللغة "جون أوستين". الذي ألقى عام 1955 محاضرات لوليام جيمس بجامعة هارفارد. فنجح في خلق اختصاص فلسفي جديد، هو: فلسفة اللغة، هذا الاختصاص لم يلبث حتى "طال هندسة اللسانيات"[24]، وأهم ما جاء به أوستين كون "اللغة تهدف خاصة إلى وصف الواقع"[25]، فكل الجمل عنده باستثناء (الاستفهامية، والأمرية، والتعجبية)، يمكن الحكم عليها بالصدق، أو الكذب،

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وأساس الحكم على الجمل، هو ما تحقق في الواقع؛ فإن حققت فعلا في الكون، يحكم عليها بالصدق، والعكس في خلاف ذلك، والكثير من الجمل التي ليست استفهامية، أو تعجبية، أو أمرية لا تصف شيئا، ولا يمكن الحكم عليها بالصدق أو الكذب، هذه الجمل لا تصف الواقع؛ أي لا تصنّف ضمن الجمل التي اقترحها أوستين؛ وقد افترض لها تسمية هي: الإيهام الوصفي. هذا الطابع يجعل الجمل لا تقول شيئا عن حالة الكون الراهنة أو السابقة، إنما تغيرها أو تسعى إلى تغيرها". مثلا: جملة "آمرك بالصمت" قائلها يسعى إلى فرض الصمت على مخاطبه؛ بالتالي تغيير الكون من حالة ضجيج إلى هدوء. وصل أوستين إلى أنه من ضمن الجمل غير الاستفهامية، أو الأمرية، أو التعجبية، أو التي تصف الكون، يمكن الحكم عليها بالصدق والكذب، وتوجد جمل لا تصف الكون بل تسعى إلى تغييره، لا يمكن الحكم عليها بمعيار الصدق والكذب. سمى أوستين الجمل الأولى وصفية، وهي مقابلة للجمل الخبرية في العربية. أما الثانية سماها إنشائية[26].

بعد هذا تطوّرت رؤية أوستين، وتجاوز مبدأ المقابلة بين الجمل الوصفية، والجمل الإنشائية، وانتقل إلى تميّز جديد "فهو يقرّ بأن كل جملة تامة مستعملة، تقابل إنجاز عمل لغوي واحد على الأقل"[27]. أي إنّ أيّ قول داخل السياق هو كيفية من كيفيات العمل، ولعل هذا الذي حمله على تسمية أحد كتبه "عندما يعني القول الفعل"[28]. وهو يميّز بين ثلاثة أنماط من الأعمال اللغوية[29].

أولا: العمل القولي: هو العمل الذي يتحقق ما إن نتلفظ بشيء.

ثانيا: عمل التأثير بالقول: وهو العمل الذي يتحقق نتيجة قولنا شيئا ما.

ثالثا: العمل المتضمن في القول: وهو يتحقق بقولنا شيئا ما.

هكذا يكون أوستين قد استبدل تميز الجمل الإنشائية من الوصفية، بالبحث في مسألة أخرى كانت إيذانا بفتح أفاق نظرية ستكون أهم نظريات التداولية، وهي نظرية أفعال الكلام، فالجملة بحسبه، بمجرد التلفظ بها توافق على إنجاز عمل قولي، كما توافق حدوث تأثيرا جراءها، وتكون التداولية بهذا قد تجاوزت الإطار الذي حدده لها بيرس، فاتسع مجال بحثها بإدراج عدة مفاهيم ونظريات ضمنية جديدة.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

3ـ مفاهيم ونظريات التداولية:

أ ـ مفاهيم التداولية:

1ـ آليات اشتغال المنهج التداولي:

ينضوي تحت مفهوم التداولية مفاهيم أخرى، تابعة لها، بدأت تظهر مع كل تطور، حتى وصلت إلى شكلها المؤثث اليوم، ويمكن رصد هذه المفاهيم انطلاقا من الإجابة عن الأسئلة المقترحة التي يمكن تصورها من قبيل: من الذي يتكلم؟ ومع من يتكلم؟ وماذا يقول؟ وكيف، ولماذا؟ وأين، ومتى؟ إنّ الإجابة عن هذه الأسئلة مسألة مهمة جدا،إذ إنها توضح مفاصل التوجه التداولي الذي يرتكز على مجموعة من المفاهيم، ومنها:

1. **السياق**: وهو أبرز المفاهيم التابعة للمنهج التداولي، أهم الدراسات تذهب إلى أن التداولية هي العلم الخاص بالسياق؛ لأنها تهتم بدراسة أنواعه ومستوياته[30]، واهتمام اللغويين بالسياق ودوره واضح، إذ نجد المدرسة الاجتماعية الانجليزية بزعامة فيرث (1957) تؤكد على دور السياق في تحديد المعنى، لذلك أولت اهتماما لدراسة المكونات اللغوية ضمن إطار الموقف الكلامي[31].

جرى تقسيم السياق إلى نوعين: حسب مالينوفسكي

أ. **سياق الموقف**: جملة العناصر المكوّنة للموقف الكلامي، أي البنية أو المحيط الذي ينتج فيه النص. وتجب الإشارة هنا، أن مالينوفسكي وهو يتصور مفهومه هذا (سياق الموقف)؛ لم يكن يعلم أن هناك من نال قصب السبق إلى تصوره، وهم البلاغيون العرب، عندما تحدثوا عن (المقام) وعرّفوا البلاغة على أنها (مراعاة مقتضى الحال)، وأوّل من بدأ معه هذا التصور هو بشر بن المعتمر، وكانت هذه الفكرة محورا هاما في صحيفته المشهورة[32].الواردة في كتاب البيان والتبين للجاحظ.

ب. **السياق الثقافي**: إن تحديد دلالة النص يستدعي معرفة المحيط الثقافي؛ الذي تنتج فيه "فأي نوع من التفاعل أو التبادل الحواري لا يمثله فقط مجموع الرؤى أو الأصوات المحيطة بالحدث ولكن أيضا التاريخ الثقافي"[33]، الموجود في عقول أطراف الخطاب. هذا السياق يضمن فهم الخطاب في المجتمعات الموحدة الثقافات، فكل مجتمع يختص بثقافته "وكل لغة تحوي ألفاظا

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وعبارات قد يصعب ترجمتها إلى غيرها من اللغات لأنها تمثل خصوصية هذا المجتمع دون غيره"[34]. هذا، وإن كان مفهوم السياق وأنواعه قد يتطلب مساحة أوسع من البحث، غير أن ذكره جاء في هذا المقام كمفهوم تابع للتداولية، والأهم من ذلك أنه يشكل عنصرا من عناصر تحليل الخطاب.

2. **الفعل**: هذا المفهوم من مفاهيم التداولية يختص بإنجاز الكلام؛ فاللغة في شكلها الصوري لا تفسر النصوص، بل إن تأويل النصوص يتحقق بعد تحول اللغة إلى أفعال، و"الدراسة التداولية للنصوص تستند إلى تأويل للنص بوصفه فعلا للسان، أو بوصفه سلسلة من أفعال اللسان"[35]. وكنتيجة لهذه الوظيفة ظهرت نظرية أفعال الكلام مع أوستين.

3. **المرجع**: علاقة تواصلية بين قطبي الخطاب (المتكلم/ المتلقي) "يتلقى المخاطب علامات لغته أو لغة أخرى يؤولها عن طريق إرجاعها إلى عالمها الحقيقي، أي انطلاقا مما يقوله المتكلم عن نفسه وعن الآخرين، وليكون قادرا على ترجمة خطابات المتكلم ينبغي أن يشاركه في الوضع؛ أي اللغة التي يتحادثان بها، وأن يملك خلفيات مسبقة عن موضوع الحديث؛ إذ من الصعب أن نفهم كمتلقين خطاب الرئيس الأمريكي المتحدث عن تاريخها، وحاضرها. إذا كنا نجهل الإنجليزية والخلفيات الثقافية والتاريخية لتلك الأحاديث"[36]، ويكون للمرجعية بذلك يد طولى في تثبيت المنهج التداولي؛ لتعدّ "القاعدة الأساس لكل اتصال وتواصل وهي تحدد العلاقة بين الملفوظ، والموضوع الذي تحيل إليه، وتدلّ على سيرورة العلاقة بين الملفوظ والمرجع، أي مجموع الآليات التي تصل بعض الوحدات اللغوية ببعض الوحدات من الحقيقة غير اللغوية"[37]، هي إذا قاعدة لكل تواصل، بتحديد العلاقة بين الخطاب والشيء الذي يحيل إليه.

4. **الحجاج**:

سيكون تناول هذا المفهوم مسهبا نوعا ما، لما يكتسبه من منزلة عالية بين مفاهيم التداولية.

الحجاج: "هو طريقة عرض الحجج وتقديمها، يستهدف التأثير في السامع؛ فيكون الخطاب بذلك ناجحا فعالا"[38]، هذه الاستراتيجيات الإقناعية التي يسعى الباث إلى استعمالها تكون لغوية

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أو غير لغوية، شرط أن تحقق وظيفتها الإقناعية، هذا هو المفهوم البسيط للحجاج، الذي يصعب حصر مفهومه –حقيقة– وتحديده داخل الركام الهائل من المرجعيات النظرية التي يرجع إليها "إذ نجده متواترا في الأدبيات الفلسفية والبلاغية، وفي الدراسات القانونية، والمقاربات اللسانية والنفسانية والخطابية المعاصرة"[39]. إلا أنّ ما يهمنا في مجال تحليل الخطاب؛ الحجاج كعملية خطابية بحتة، هذه العملية عرفت باسم البلاغة الجديدة، وهي البلاغة الساعية إلى أن تكون "وسيلةً للإقناع وخاصة وسيلةً للإبداع"[40]، عكس البلاغة التقليدية التي اتخذت النموذج الحجاجي نموذجا معياريا، فكانت تؤسس لنوع خطابي معياري تعرف مبادئه، ومفاصله، قبل إنتاجه أصلا. قد ساهم في بناء توجهات هذه البلاغة الجديدة ، نخبة من العلماء، يذكر منهم:

– شايم بيرلمان Chaim perlman: حاول بناء "تصور نظري للحجاج"[41]، وهو يتصور الفعل الحجاجي كآلة خطابية منظمة، ويقصره على "درس تقنيات الخطاب التي من شأنها أن تؤدي بالأذهان إلى التسليم بما يعرض عليها من أطروحات ،أو يزيد في درجة ذلك التسليم"[42] وقد جمع كل تلك التقنيات في مصنفه، مصنف الحجاج، الخطابة الجديدة، حيث رصد الآليات التي يحصل بها الإقناع لدى المتلقين.

– ستيفان تولمين Stephen taulmin: أفكاره ذات مسحة منطقية فهو "يهتم بالحجج التي تضفي الشرعية على النتائج وتبرر مقبوليتها"[43]،كما أنه يدخل أحكام العقل على حيثيات تفسير الظواهر الخطابية، ويتخذ من التعليل وظيفة أساسية للحجاج.

– ج.فينو Ceorges vignaux: بنى تصوره أساسا على نقد تصوّر "بيرلمان"وتوصل إلى أن المقاربة الحجاجية، هي المقاربة الوحيدة المؤهلة لدراسة الخطاب"[44]. ليكون الحجاج عندئذ استراتيجية تكشف عن آليات بناء الخطاب، والواقع أن الكلام عن الحجاج لن يأتي أُكله، إذا لم يكن متناولا من زاوية تداولية قولية؛ حيث يبحث عن الوظيفة الحجاجية اللسانية، وتمفصلاتها القولية، ولعل أهم جهة اهتمت بهذه المقاربة اللسانية، ما عرف بالتداولات المدمجة.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

التداولية المدمجة:

تنطلق هذه النظرية من أن لكل الأفعال القولية وظيفة حجاجية، تظهر في ملفوظات الجمل، إلا "أن القيمة الإخبارية للملفوظ قيمة ثانوية بالنظر إلى قيمة الملفوظ الحجاجية"[45]، يكون الحجاج هنا دالا على صنف مخصوص من العلاقات داخل الخطاب؛ حيث تكون العلاقات قابلة للقياس بالدرجات، ومن ثم ظهر مفهوم السلالم الحجاجية، ومن منطلق أن هذه النظرية تختص بوصف العلاقات سواء حددت لسانيا أو اندرجت تداوليا، يمكن الانتصار لفكرة "أولوية الحجاج عن الإخبار"[46]. ولتوضيح ذلك نأخذ مثالا يبين قصور زاوية النظر الإخبارية:

يسأل الرجل زوجته، هل العشاء جاهز؟ فتجيب: تقريبا جاهز.

إذا سمينا جاهزية العشاء (ق). وعدم جاهزيته (لا.ق) فإن النظر من الناحية الإخبارية يستلزم أن (تقريبا) ⟹(لا.ق)، فكلمة -تقريبا- عند التلفظ بها ستعني عدم جاهزية العشاء، ولو كان العكس، لكانت دعوة الزوجة زوجها إلى الأكل أولى.

لكن النظر في مثال آخر: تقريبا أنهيت قراءة الكتاب.

في هذا المقام لن يكون الاهتمام بأن (تقريبا) تؤدي معنى (لا.ق) أي عدم إنهاء الكتاب، ويكون الاهتمام بأن إنهاء الكتاب أمر محسوم، بالتالي جملة لها شكل: (تقريبا.ق) لا تستدعي موضعا يمكن اعتماده مع جملة لها شكل: ق. وهنا تقدم القيمة التداولية التواصلية على القيمة النطقية، وتحديد السلم الحجاجي الذي يحصره الملفوظ هو الأولى من تحديد قيّمه الإخبارية[47]، فالقيمة الحجاجية للمقول لا تنتج فقط عن المعلومات التي يحملها، وإنما يمكن للجملة استخدام مسائل أخرى، هذا ما جعل ديكرو يتصوّر نظاما للحُجج يقوم على معايير التفاوت، من ثمّ توصل إلى نظرية السلالم الحجاجية.

السلالم الحجاجية:

سبقت الإشارة إلى أن الأفعال القولية لها وظائف حجاجية، هذا ما انطلق منه ديكرو لبناء نظريته، هذه الوظائف الحجاجية توجه المتلقي نحو نتيجة معينة، أو تغير وجهته عنها.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

يبين ديكرو أن القيم الحجاجية لا تظهر بالعودة إلى المعلومات التي يحملها المقول فقط؛ بل إلى أمور متعددة أخرى، كالصيغ الأسلوبية المتنوعة؛ أي أن "المقول يحمل في ذاته تعبيرا عن السمة الحجاجية وهي سمة تتنوع حسب المتكلمين، وتبعا لأوضاع الخطاب"[48]، وعلى حسب دائما أنّ لا أحد يستطيع أن يتوقع –حسب ديكرو- أن النتيجة (ن) المقترحة من (م) وغير المصدقة من (ب)، ولكنه يمكن أن يتوقع أن (م) و (ب) يوجهان إلى نفس النتيجة.

انطلاقا من ذلك يقترح ديكرو ما يسميه بمفهوم الفئة الحجاجية (ف.ح)؛ هذا المفهوم يجعل المتكلم فاعل لساني؛ يفهم الحجج المستعملة في خطابه، ويحسن توظيفها وتصنيفها.

ثم يقترح وضع حجتين (ج) و(ج$_1$) داخل (ف.ح) بواسطة المقول (م) ، الحجتان (ج) و (ج$_1$) حجتان لصالح (م)، و (ج) و (ج$_1$) تتفاوتان في القوة والضعف، من هنا انطلق تصور ديكرو باقتراح معيار سلمي للحجج. قد تكون (ج$_1$) حجة أعلى من (ج) بالنسبة لـ (م)، بالتالي إذا قُبلت نتيجة المقول (م) من الحجة (ج) ستقبل نتيجته حتما من الحجة (ج$_1$)؛ فقبول الحجة الأقوى أولى من الحجة الأضعف[49]. بهذا المعنى تنتظم الفئة الحجاجية بواسطة علاقة سلمية، وسمها ديكرو بالسلم الحجاجي المعبر عنه في الصياغة التالية[50].

م-
ج1-
ج-

كانت تلك إشارة، ومحاولة للاقتراب من باب رئيسي من أبواب المباحث التداولية. وكانت النتيجة أنه ـ الحجاج ـ فعل لغوي مركب يعمل كاستراتيجية خطابية تفاعلية إقناعية.

ب ـ نظريات التداولية:

يمكن اعتبار أهم النظريات التداولية: نظرية أفعال الكلام- (جون أوستين) ونظرية تداوليات الحديث- (إيميل بينفست) [51].

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

1. **نظرية أفعال الكلام**: تهتم هذه النظرية بالآثار التي يخلفها فعل الكلام "فالوحدة الدنيا للتواصل الإنساني ليست هي الجملة، ولا أيُ تعبير آخر، بل هي استعمال إنجاز بعض أنماط الأفعال"[52]. أي الوقوف على الآثار اللسانية؛ فاللسان ليس كيانا بعيدا عن كيان الإنسان الذي يتكلمه، بل هو عمل ينتمي إلى عمل المتكلم ذاته، وكما سبقت الإشارة؛ فإن أوستين هو أول من قال إنّ اللغة نشاط وعمل ينجز، وهي أيضا فعل كلامي.

عند قول القاضي في المحكمة "أرفع الجلسة" قوله ليس لمجرد الإخبار، بل هو يفعل ذلك حقا برفع الجلسة[53]. والتعبير "أتستطيع مساعدتي في دفع السيارة" يكون القصد منه إنجاز فعل هو فعل (الطلب) وهو نوع من أنواع أفعال الكلام[54]، وقد ابتكر أوستين لائحة طويلة بهذه الأفعال، منها: أعطى أمرا، وأكد، وسأل، واعتذر، وهدد، وتحدى، وترجى[55].

يحوي الفعل اللغوي حسب أوستين ثلاثة أفعال تشكل كيانا واحدا.

1. **الصوتي**: يتمثل في التلفظ أو إنتاج أصوات.
2. **التبليغي**: يتمثل في كون هذه الأصوات تتوفر على صورة معينة، فضلا عن انتمائها إلى لغة محددة وخضوعها لقواعد هذه اللغة.
3. **الخطابي**: الذي يجعل هذه الكلمات أو العبارات ذوات دلالة معينة.

أما الفعل الإنشائي؛ فيتمثل في إنجاز عمل ما بإنتاج الفعل الإنشائي، ويعلّق الأمر ههنا بتحقيق مقصدية المتكلم. هناك أيضا الفعل التأثيري؛ الذي يحدث بواسطته وجوبا، رد فعل وتأثير لدى المخاطب، وهذا يعني التأثير على أفكاره ومشاعره.

إن القول التالي: أطفئ الضوء، يثير لدى المخاطب-إنّ هو فهم القصد- رد فعل، ومن ثمّ يقوم بإطفاء الضوء[56]. هناك تصوّر آخر لمكونات أفعال الكلام وهي: [57].

1. **فعل لغوي**: كقولك لا تكذب.
2. **فعل إنجازي**: يثير رد فعل وتغيرا في السلوك.
3. **فعل علائقي**:يتمثل في رد فعل المخاطَب

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

جاء بعد أوستين تلميذه جون سورل[58] الذي وسّع نظرية أستاذه حين صنف الأفعال الكلامية إلى أفعال مباشرة، وأفعال غير مباشرة؛ المباشرة هي المعنى في القول بذاته؛ أما غير المباشرة؛ فتحتاج إلى تأويل لتبين مفهومها، وينطلق سيرل في تصوّره للفعل المباشر من عبارة فلسفية "القول هو العمل" ليصنف بذلك أربعة أفعال في الآن ذاته[59].

أ ـ فعل القول. ب- فعل الإسناد. ج- فعل الإنشاء. د- فعل التأثير

إذا أردنا فعلا وضع أيدينا على الجديد الذي أضافه سيرل على أعمال أستاذه، نذكر التطوير الذي ألحقه ببعدين هما: المقاصد والمواضعات؛ فكل الأعمال اللغوية والجمل المنجزة بواسطتها، وسيلة تواضعية للتعبير عن مقاصد معينة، طبعا هذا التصوّر كان موجودا عند "جون أوستين" وقام سيرل بتحديثه. وجلّ ما يهتم به هذا الأخير هو الأعمال المتضمنة في القول، ولعل النقطة المضيئة التي تميّز عمله، هي أنه ميز داخل الجملة، بين ما يتصل بالعمل المتضمن في حد ذاته وسمّاه (واسم القوة المتضمنة في القول)، وما يتصل بمضمون الجمل وسماه (واسم المحتوى القضوي) مثالا على ذلك قول: "أعدك أن أحضر غدا"، كلمة "أعدك" تمثل واسم القوة المتضمن في القول: عبارة "أحضر غدا" تمثل واسم المحتوى القضوي، لقائل الجملة السابقة نية الوعد بالحضور غدا، ويحقق النية بإنتاج جملة "أعدك بأن أحضر غدا"[60].

كان ذلك ما أضافه سيرل لنظرية الأفعال اللغوية، إضافة إلى حديثه عن تصنيف جديد للأعمال اللغوية هو أساس لمنطق الأعمال المتضمنة في القول، يبحث فيه عن الشروط التي بمقتضاها يكلل عمل متضمن في القول بالنجاح. تلك باقتضاب شديد أهم مرتكزات نظرية أفعال الكلام التي مازالت في تطور.

ج ـ نظرية تداوليات الكلام:

رائدها إيميل بينفيست؛ تقوم هذه النظرية على مفهوم التلفظ؛ وهو عنده تحول اللغة إلى خطاب، وقد أطلق هذا المصطلح أول مرّة في مقال صدر له سنة 1970، ثم تبنى المصطلح بشكل واضح في كتابه: مسائل من اللسانيات العامة الذي صدر سنة 1974 من هنا بدأ التحول من دراسة

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

اللغة فقط، إلى دراسة كيفية تجسيد هذه اللغة كنشاط كلامي يتحقق به الفعل التواصلي ، و"لم يصر أخذ التلفظ بعين الاعتبار على نحو منظم مألوفا إلا منذ مدة قصيرة في اللسانيات الموسومة بأنها حديثة أو علمية"[61]. وقد ساهم المصطلح في إعادة مكانة الكلام بعدما استبعد عن الدراسات اللسانية في بداياتها مع فردناند دي سوسير.

وأصبح أساسا تحليل الخطاب، دون إغماط حق اللغة، لكن أيضا دون المزج بينهما، "فنحتفظ بتسمية اللسانيات دون المزج بين اللسانيات التي تعالج اللغة واللسانيات التي تعالج الكلام"[62].كما استدعى احتفاء هذه النظرية بالكلام احتفاءً بالمتكلم، باعتباره الأصل الذي يأخذ منه التلفظ، وظيفته، وقيمته التداولية. ويجدر بنا هنا التفريق بين مصطلحين، كلاهما يؤكد أن اللغة نشاط كلامي حسب بينفيست وهما: التلفظ، والملفوظ.

التلفظ: "متتالية متحققة فعلا أي هو تعلق مخصوص لكيانات لسانية"[63].

الملفوظ: "الواقعة التاريخية التي تنشأ عبر ظهور التلفظ، أو هو إنجاز الجملة"[64]. وكمثال توضيحي للمفهومين:

– "أدهشتني رسالته" هل نص الرسالة مدهش في ذاته، أم أن الملفوظات التي تكون منها هي المدهشة، أم الاندهاش لأن الرسالة كتبت لي كما هي، والحال أن كاتبها لا يكتب لي عادة، أو يكتب لكن رسائل من نوع آخر.

في الحالتين الآخيرتين، المفاجئ هو التلفظ لا الملفوظ، يكون عندئذ التلفظ انبثاق للملفوظ وإذا أردنا شرح الملفوظات لا يجب تجاهل التلفظ[65]. وحتى تحدث عملية التلفظ، يجب توفر علاقات بين الملفوظ ومختلف عناصر الإطار التلفظي، هذه العناصر هي: المشاركين في الخطاب (المتكلم/ المخاطب)، وكذلك سياق الخطاب (الظروف المحيطة بالعملية التخاطبية) وكذلك الظروف العامة لإنتاج وتلقي الملفوظ (المحتوى السيسيوثقافي والتاريخي، طبيعة القناة) [66]. وقد توسعت هذه النظرية في الأدوات الإجرائية لتحليل الخطاب، فتعدّت كون اللغة مجرّد صيغة نحوية

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وصرفية، إلى ميزة أخرى، تتعلق باستعمالها وتوظيفها، بدمج الكلام في لبّ دراساتها، كما ألفت هذه النظرية بين ما هو تلفظ، وما هو ملفوظ كما رأينا.

إن محاولة مقاربة المنهج التداولي محفوفة بالكثير من الصعوبات؛ نظرا لثرائه وتنوعه لدرجة صعوبة الوصول إلى فكرة شاملة عنه، ذلك لتعدد التيارات التي تنظمه، وكذا لتنوع المشارب الفكرية لأعلامه الذين أسسوا له ابستيولوجيا، وفلسفيا، والذين أجروه تطبيقيا، لذلك يجد الباحث عنتا في لم أطراف هذا المنهج الذي يعدُّ من المناهج الحديثة التي تمظهرت كتطور للسانيات. طبعا بعد إعادة منزلتة، حيث كان نهجا توضع فيه المسائل المستعصية حلها في النحو والدلالة فحسب، واليوم أصبح مستوى ثالث من مستويات تحليل الخطاب، له وزنه بين المستويات الأخرى، التركيبي والدلالي.

مراجع البحث وإحالاته

1 – أول من استعمل هذا المصطلح في اللغة العربية (الذي يقابل في اللغة الفرنسية Pragmatique وفي الإنجليزية Pragmatistes) الأستاذ أحمد المتوكل ، أستاذ بكلية الآداب بجامعة محمد الخامس، ينظر: خولة طالب الإبراهيمي، مبادئ في اللسانيات، دار القصبة للنشر، الجزائر، سنة 2000، ص: 176.

2 – ينظر: سعيد حسن البحيري، علم لغة النص، المفاهيم والاتجاهات، الطبعة الأولى، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، القاهرة، سنة 1997، ص: 16

3 – فان ديك: عالم لساني هولندي، ولد سنة 1943، اهتم بتطوير دراسة ضروب نحو النص وتداولية الخطاب، نشرت أبحاثه فيما يزيد عن 30 دراسة، يشتغل حاليا أستاذا بجامعة أمستردام، ينظر: فانديك، النص والسياق، استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي، ترجمة: عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، بيروت، لبنان، سنة:2000، ص:09.

4 – خوسيه ماريا يوثولو ايفانكوس، نظرية اللغة الأدبية، ترجمة: حامد أبو أحمد، مكتبة غريب، القاهرة، ص: 08

5 – محمد خطابي، لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، الطبعة الأولى، المركز العربي، الدار البيضاء، سنة: 1991، ص: 27.

6 – ينظر: حسن سعيد البحيري، علم لغة النص، ص: 125.

7 – كلاوس برينكر، مدخل إلى المفاهيم الأساسية والمناهج، ترجمة: سعيد حسن البحيري، الطبعة الأولى، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، سنة 2005، ص: 26.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

8 – ما يهمنا نحن تناول التداولية كخاصية خطابية.

9 – ينظر: إدريس مقبول، الأسس الإبستيمولوجية والتداولية للنظر النحوي عند سيبويهالم الكتب الحديث، ص: 264.

10 – نظرية من أهم نظريات التداولية، أتى بها الفيلسوف الإنجليزي، جون أوستين "وهو أول من قال أن اللغة نشاط وعمل ينجز، أي أ ن المتكلم لا يخبر ويبلغ فقط بل أنه يفعل" وهذا هو المفهوم البسيط لهذه النظرية. ينظر: خولة طالب الإبراهيمي مبادئ في اللسانيات، ص: 191.

11 – ينظر: Roland Glood, La pragmatique linguistique, Edition Fornand atham, 185, p: 09

12 – فرانسوا أرمينكو، المقاربة التداولية، ترجمة: سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، ص: 08.

13 - Gorges Elia Sarfati, précis de pragmatique, Edition Nathan, Paris, 2002, p: 24.

14 – ينظر: سعيد حسن البحيري، عل لغة النص، ص: 147

15 – فيلسوف أمريكي، ولد سنة 1838، درس الكيمياء، غير أنه مال عنها إلى الفلسفة، كتب عدة مقالات، قامت جامعة هارفاد بجمعها في ثمانية مجلدات وكان ذلك بعد سنة 1914. ينظر: حامد خليل، المنطق البراجماتي عند تشارل ساندرس بيرس مؤسس البراجماتية، دار الينابيع للنشر والتوزيع، دمشق، 1996، ص: 07.

16 – فيلسوف انجليزي ولد سنة 1970. رائد الفلسفة التحليلية وصاحب كتاب " How to do thing with words". ينظر: خولة طالب الإبراهيمي، مبادئ في اللسانيات، ص 178.

17 – بوقرة نعمان، محاضرات في المدارس اللسانية المعاصرة، منشورات جامعة باجي مختار، عنابة، سنة: 2006م، ص: 179.

18 – منقور عبد الجليل، علم الدلالة أصوله، ومباحثه في التراث العربي–دراسة– منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سنة 200، ص: 102– 101.

19 – ينظر: خولة طالب الإبراهيمي، مبادئ في اللسانيات، ص 159.

20 – الجيلالي دلاش، مدخل إلى اللسانيات التداولية، ترجمة: محمد يحياتن، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، سنة:1992م، ص:08.

21 – ينظر: الجيلالي دلاش، مدخل إلى اللسانيات التداولية ، ص: 08.

22 – بوقرة نعمان، محاضرات في المدارس اللسانية المعاصرة، ص: 180.

23 – نفسه ، ص: 181.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

24 – إدريس مقبول، الأسس الابستيمولوجية والتداولية، ص: 267.

25 – آن روبول، جاك موشلار، التداولية اليوم علم جديد في لتواصل، ترجمة سيف الدين دغفوس ومحمد الشيباني، الطبعة الأولى، المنظمة العربية للترجمة، دار الطليعة للنشر، بيروت، لبنان، سنة...، ص: 29.

26 – ينظر: نفسه، ص: 29 – 30 – 31.

27 – آن روبول، جاك موشلار، التداولية اليوم ، ص: 31.

28 – ينظر: الجيلالي دلاش، مدخل إلى اللسانيات التداولية، ص: 24.

29 – ينظر: آن روبول، جاك موشلار، التداولية اليوم، ص: 31 – 32.

30 – ينظر: فرانسواز أرمينكو، المقاربة التداولية، ص: 09.

31 – ينظر: عزة الشبل، علم لغة النص، النظرية والتطبيق، ط1، مكتبة الآداب، القاهرة، ص:02.

32 – ينظر: جميل عبد المجيد، البلاغة والاتصال، دار غريب للطباعة والنشر ، القاهرة، سنة:2000،ص:21.

33 – عزة الشبل، علم لغة النص، ص: 03.

34 – عزة الشبل، علم لغة النص، ، ص: 03.

35 – منذر عياشي، العلاماتية وعلم النص، الطبعة الأولى، المركز الثقافي العربي، بيروت، سنة: 2004، ص: 171.

36 – ذهبية حمو الحاج، لسانيات التلفظ وتداوليات الخطاب، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ص: 94.

37 – ذهبية حمو الحاج، لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب، ص: 94.

38 – صابر الحباشة، التداولية والحجاج، مداخل ونصوص، صفحات لدراسات والنشر، ص: 21.

39 – محمد طروس، النظرية الحجاجية، من خلال الدراسات البلاغية والمنطقية واللسانية، الطبعة الأولى، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، 2005/ 1426هـ، ص: 06.

40 – صابر الحباشة، التداولية والحجاج، ص: 16.

41 – محمد طروس، النظرية الحجاجية، ص: 43.

42 – محمد طروس، النظرية الحجاجية، ص: 56.

43 – محمد طروس، النظرية الحجاجية ، ص: 68.

44 – محمد طروس، النظرية الحجاجية ، ص: 93.

45 – صابر الحباشة، التداولية والحجاج، ص: 23.

46 – صابر الحباشة، التداولية والحجاج، ص: 21.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

47 – ينظر: صابر الحباشة، التداولية والحجاج، ص: 22.

48 – 49–50– محمد طروس، النظرية الحجاجية، ص: 95– 96.

49 – ينظر: محمد طروس، النظرية الحجاجية ، ص: 95 – 96.

50 – ينظر: محمد طروس، النظرية الحجاجية، ص: 96.

51 – لسانيٌ فرنسي، عرف بدراساته التداولية، ونظرية الحديث، من أشهر مؤلفاته: مسائل من اللسانيات العامة، ينظر: عمر بلخير، تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية، الطبعة الأولى، منشورات الاختلاف، الجزائر، سنة 2002، ص: 32.

52 – فرانسواز أرمينكو، المقاربة التداولية، ص: 60.

53 – ينظر: خولة طالب الإبراهيمي، مبادئ في اللسانيات، ص: 161– 162.

54 – ينظر: منذر عياشي، العلاماتية وعلم النص، ص: 171.

55 – ينظر: فرانسواز أرمينكو، المقاربة التداولية، ص: 60.

56 – ينظر: الجيلالي دلاش، مدخل إلى اللسانيات التداولية، ص: 24.

57 – ينظر: خولة طالب الإبراهيمي، مبادئ في اللسانيات، ص: 162.

58 – جون سيرل، فيلسوف أمريكي ولد سنة 1932 بالولايات المتحدة، درس الفلسفة بجامعة أكسفورد "هو تلميذ الفيلسوف أوستين".

59 – الجيلالي دلاش، مدخل إلى اللسانيات التداولية، ص: 258.

60 – ينظر: آن روبول وجاك موشلار، التداولية اليوم، ص: 33– 34.

61 – صابر الحباشة، لسانيات الخطاب، الأسلوبية والتلفظ والتداولية، الطبعة الأولى، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، سورية، سنة 2010م، ص: 23.

62 – ذهبية حمو الحاج، لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب، ص: 83.

63 – صابر الحباشة، لسانيات الخطاب، ص: 25.

64 – صابر الحباشة، لسانيات الخطاب ، ص: 26.

65 – ينظر: صابر الحباشة، لسانيات الخطاب ، ص: 26.

66 – ذهبية حمو الحاج، لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب، ص: 89 – 90.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com